قضية الشعر العربي الحديث

بقلم سماحة الخضراء الجيوسي

قضية الشعر الحديث قضيه حيويه ستطيع ان نعتبرها بحكم وضعها الراهن في البلاد العربيه اشد قضايا الفنون المعاصرة اثارة واعنفها جلبا للنقاش والخصومة ـ فبينما يحتدم الاخذ والرد حول الحركات الجديده في الشعر العربي وحول كل خطوة يخطوها الشاعر الحديث في محاولته الواعيه ان يطور شعرنا فنيا وينهض به الى المستوى العالمي ، تسير المحاولات الكثيرة في الرسم والنحت عندنا في طريقها الميمون لا تجد من يضطهدها ويقاوم سيرها الآمن . ومع ان الموسيقى فن قديم عند العرب قدم الشعر ، فان التجارب التي يقوم بها الموسيقيون عندنا لتطوير الفن الموسيقي وتطعيمه بنكهات غير عربية واطلاقه من قيود ربع النغم والرتابة المضنية والتكرار وغير ذلك ـ هذه التجارب نالت ، اجمالا ، رغم المصاعب الكثيرة التي واجهتها اعجاب الجمهور المعاصر واكباره وتدليله ـ ويبقي الشعر الحديث وحده محط الجدل والمشاحنات وتنبؤات الزوال السريع . والحقيقة ان سبب هذا متعدد الجوانب : فهو يقع اولا في ان للشعر منزلة كبرى عند امتنا العربية ، ويحتل من الادب العربي مكان الصدارة ـ فهو فن العرب الاول ، احبوه وآثروه ورددوه واقاموا له الاندية منذ الجاهلية حتى اليوم ، فلا عجب اذن ان نرى الفرد العربي عندنا يشعر بان قضية الشعر تخصه شخصيا ، وان عليه ان يسرع فيعطي رأيه فيها ويتدخل في كل المشكلات التي تطرحها التطورات الشعرية المتتابعة ، والسبب الثاني الذي عقد مشكلة الشعر الحديث هو ان القارىء المتأدب قد نشأ يعتنق آراء مسبقة عن الشعر وماهيته واوصافه توجه كل احكامه وتقف سدا بينه وبين قدرته الكامنة على التذوق والتعرف على وجه الفن الاصيل مهما كانت الصورة التي افرغ فيها .

قد يكون هناك من يؤثر على شعرنا الحديث، الشعر الجيد الذي ينهج النهج القديم ـ وقد ينظر الى حركة الشعر الحديث على انها حركة دخيلة على الشعر العربي، وليست منبثقة عنه وفق سنة التطور الطبيعي للفنون .

ولكننا ، نحن « الشعراء الحديثين » اصحاب قضية نؤمن بها ايمانا عميقا ولا نستطيع ان نسبق فنقول « اننا قد نكون مخطئين » . فان هذا يصلح قوله عندما يقدم الانسان وجهة نظر ، لا عندما يعرض قضية تبناها مدى العمر . وعليه فانه لا يسعني ان اقول لمن لا يؤمن بالحركة الحديثة الا ان يصبر ويترفق في حكمه . فانا مؤمنة بالشعر الحديث ومستقبله ، واجد لزاما علي ان ادعو له وادافع عنه والح على مزاياه وشروطه واصالته .

فما هي المزايا المهمة التي يعتنقها الشعر الحديث ؟ ان الجمهور القارىء عامة ، يخلط بين الشعر الحديث والشعر الحر ، فيعتقد انهما شيء واحد في جميع الاحوال ، وان التحرر من وزن الشطرين الموحد القافية ، هو في كنهه لشعر الحديث الذي نتحدث عنه . والحقيقة ان في هذا شيئا كثيرا من جزئية النظرة ـ فان حركة الشعر الحديث تشمل التجديد في جميع عناصر الشعر العربي ، لا في عنصر الوزن وحده ـ فالشكل لايتعدى ان يكون ركنا واحدا من اركان متعددة تشكل في مجموعها القطعة الشعرية ، ان الثورة الشعرية شملت الشكل والمضمون ـ ووحدت بينهما، انها اولا حررت الشكل من قيود الشطرية المتوازنة ، محتفظة لنفسها بالحق ان تعود الى استعمالها متى شاءت ـ اي انها اذ انطلقت تخلق لنفسها ايقاعات جديدة ، وتطور سبعة اوزان او ثمانية من ستة عشر وزنا من الاوزان القديمة ، متلاعبة في تفعيلاتها، انها اذ فعلت ذلك لم تحكم على الطريقة القديمة بالموت والانقراض ، وان كانت الحركة تؤمن ان الطريقة الحرة هي اقرب للتعبير عن قلق الانسان المعاصر واكثر تلاؤما مع روح العصر . ان الشعر الحر هو الاسلوب الجديد الذي ابدعه عصرنا ، وان كل عصر يبدع اسلوبه ما في ذلك من شك .

فعندما يصل الشعر في اية امة الى دور التنميق ، والصناعة ، وعندما يكسب لنفسه شكلا مستقرا وقوانين راسخة في الاسلوب والتعبير فان هذا دليل على ان الامة قد دخلت في عصر هادىء يخيم عليه الرخاء النسبي ولا تقض مضجعه كل السؤالات الجارحة التي تسلطت علينا في عصر نورتنا . وعندما يتركز الشكل الشعري ويصبح نموذجا مجمدا وتكون غاية الفنان لا ان ينفعل مع الحيوية المنضوية في عملية الخلق الفني بل يهدف الى ان يضغط المضمون في نطاق شكل مقرر سلفا تكون الامة قد دخلت لا في طور الرخاء والاطمئنان فحسب ، بل تكون قد تعدت ذلك الى طور الجمود والاتباعية السلبية ، حيث تتوقف قوى الخلق الجديد عن الابتكار والتلهف المتوتر . ونحن اليوم في ثورة وقلق . حياتنا الاجتماعية في ثورة ، كياننا السياسي في ثورة ، لغتنا في ثورة ، فكرنا ثائر وعواطفنا قلقة ثائرة ، ولا بد ان يعكس الشعر عندنا توترات هذه الحياة الجديدة اذا كان شعرا نابعا من اعماق التجربة الانسانية .

والى جانب القالب الشعري فقد حاولت الحركة تحرير جميع الخصائص الشعرية الاخرى ، فاشترطت ان يكون الاسلوب واللغة والعبارة ملائمة لهذا الزمن الذي تصدر

عنه ، ومن البديهي ان هذا شرط من شروط الشعر الرفيع في كل مكان وزمان . وهكذا فقد انفصلت اللفظة والعبارة في الشعر الحديث اجمالا عن ايماءاتها القديمة واستعملتا كلاهما بمدلولهما المعاصر ، ليتسنى للغة الشعر الحديث ان تكون مشتقة من اللغة المعاصرة التي شملت حياتنا واستطاعت ان تعبر عن ضروراتنا وعن ترفنا واحلامنا . وقد نجح الشاعر الحديث ايضا في تحرير الموسيقى الشعرية من آفات حملتها عبر القرون ـ من الرتابة، ومن الرنين ، ومن الجهورية ، ونجح كذلك الى حد كبير في ان ينقي الاسلوب من الحشو والتكرار الذي لا فائدة منه ـ ثم عزف عن شعر المناسبات عزوفا كليا، وعني بالمعاناة الشخصية ، والتجربة والتجربة المكتملة ، وقد حاول الشاعر الحديث في السنين العشر الماضية عن وعي منه ، ان يحرر وجهة نظره من التفاهة والسطحية والمبالغة ، والجزئية والذاتية المنغلقة ـ وان يحرر عاطفته في الشعر من الميوعة والتهافت والاحزان الرومانطيقية . وقد قامت الدعوة الجديدة توجهه نحو حقيقة الانسان ، وتدعوه ان يجعل منها محور تجربته الشعرية ـ حقيقة الانسان ! ـ في وجوه حياته كلها ، وفي عظمته وضعته ، وفي نزواته وانكماشاته ، وفي حريته وعبوديته ـ وان يتوجه الى الشعب فيستمد منه ومن موروثه الحي مادة شعره الاولى ـ . كانت حركة شاملة حيوية ، وكان شعرنا في اشد الحاجة اليها . وكنا نحن في اشد الحاجة اليها . ولولا كونها قد عبرت في توقيت مناسب عن حاجة فنية حضارية ، لما كتب لها كل النجاح الذي احرزته . ونحن لو راجعنا تاريخنا الشعري القريب في العقود الاربعة الماضية ، لوجدناه يمر في مدارس فنية سريعة متعاقبة ، دون ان يستكمل المزايا الكاملة للمدرسة الواحدة ، ودون ان يستعد استعدادا ملائما للمدرسة الجديدة . وقد عكس هذا التقبل السريع لشتى المدارس الفنية التي عرفتها آداب الامم الاخرى ، عكس امرين على غاية من الاهمية : ـ عكس اولا تزايد الثقافة في المجتمع العربي وتطور الشخصية العربية ازاء استقائها من منابع الثقافة المتعددة . وعكس ثانيا امرا لا أظن ان النقد المعاصر قد تعرض له بعد ـ وهو ذلك الدافع المبهم في اعماق الشاعر العربي في العقدين الرابع والخامس من هذا القرن لان يبحث عن اصالته المعاصرة ، بعد ان استرجع الاصالة العربية القديمة على يد الرعيل الاول من امثال البارودي وشوقي ومطران وغيرهم . هذا البحث الدائب اللاواعي عند هذا الشاعر ليكتشف نفسه ويتعرف على الروابط التي تربطه بحقيقة حياته وبأرضه وزمنه ، ساعده على تقبل شتى المدارس الشعرية ، الواحدة بعد الاخرى ، فكأنه كان يريد ان يتعجل الزمن وان يتوصل خلال سلسلة من التجارب المحتومة الى اصالته المعاصرة، في الطريقة الشعرية الحديثة التي تستطيع ان تستوعب حياة الانسان المعاصر بعد ان اصابها ما اصابها من بلبلة وقلق وتعقيد .

وهكذا كانت حركة الشعر الحديث .

وان الشاعر الحديث ، الذي يستحق هذا اللقب ، هو انسان يحترم قضية الشعر ويعاملها بصرامة وجدية وتكريس ، وقد نشأت حركة الشعر الحديث على يد شعراء شباب كانوا على جانب من الثقافة والاطلاع على آداب الامم الاخرى . غير انهم ، رغم ثقافتهم ، كانوا في اول الامر يعتمدون في ثورتهم على اراء جزئية عن الفن والواقعية والرؤيا والحرية الشعرية ، اكثر من اعتمادهم على اسس نقدية مكتملة ماثلة بين ايديهم . ولو عدنا الى اولى كتابات الشعراء الشباب لوجدناها لاتخلو من السذاجة الطريفة ، والتبسيط الجزئي لحركة اثبتت انها كانت اكثر شمولا وابعد غورا مما كانوا يتنبأون به في بداءتها . وقد ساعدهم ان يتطوروا ويطوروا مفاهيم رهافة الحدس الفني الغني الذي قاد خطواتهم الاولى والهمهم طريقهم المحفوف بالمصاعب والعراك المستمر . كان على هؤلاء الشباب ان يزدادوا ثقافة عاما بعد عام ، وكان عليهم ان يستمروا في تجرباتهم المتتابعة ـ ينجحون مرة ويفشلون اخرى ، وكان عليهم ان يستقرئوا القواعد النقدية لتساند حركتهم ولتقر قيمة النماذج الناجحة التي توصلوا الى خلقها بجهودهم ـ وفوق كل شيء كان عليهم ان يحاربوا في حلبة الادب جيوشا من الاتباعيين من شعراء ونقاد ، ويناقشوهم، ويدعوا في الوقت نفسه الى حركتهم مع الشباب الطالع .

وقد زاد الطين بلة ماتفرع عن هذه الحركة من محاولات

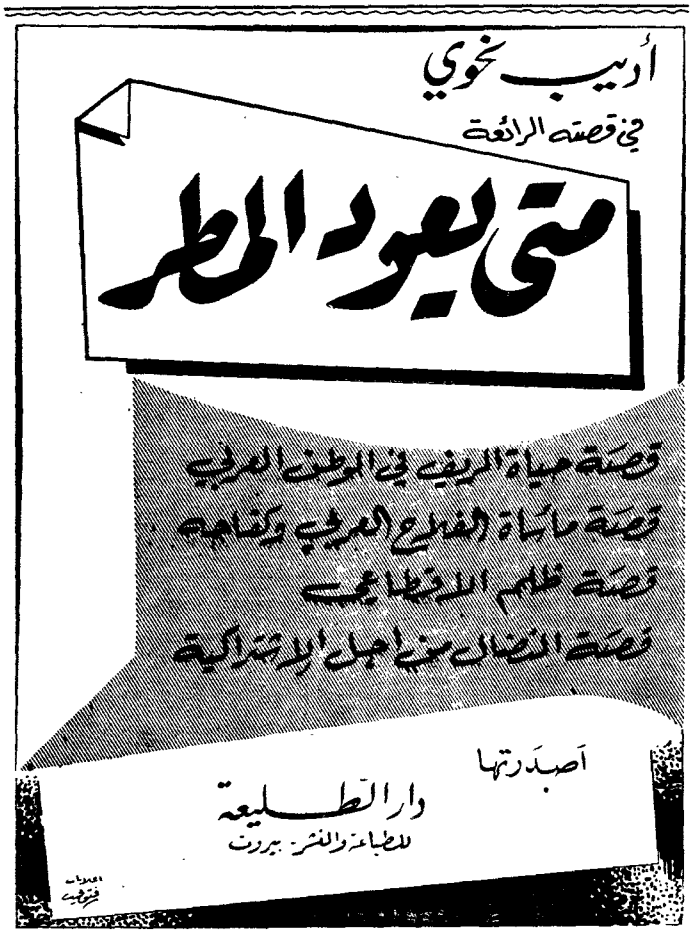

اضعف وافقر واقل مشروعية . فقد قام عدد من الشعراء بمحاولات لكتابة الشعر الحر دون ان يكونوا قد وعوا شمول الحركة الحديثة ، ودون ان يكونوا انفسهم قد رزقوا من المواهب والعمق ما يؤهلهم لان يفهموا هذا الشمول ، وان يواكبوا شروطه الصعبه . فقامت الصيحة المدويه بان الشعر الحديث قد اصيب بنكسة ، وبانه في خطر داهم . ولو تروى النقاد قليلا وهداوا من روعهم ونظروا الى الظاهره بهدوء علمي رزين ، لكانوا تبينوا انها ظاهره طبيعية في كل حركة جديدة ، وان لها امثلة مشابهة في اداب الامم الاخرى ، كما تدلنا دراسة الادب المقارن . وانها مهما اشتطت وسفت فانها لن تمس تيار الشعر الحديث بذرة من سوء . ان التيار الاصلي ليسمو الى الابداع والابداع لايضل ابدا — فهل ضر امثال ابو ريشة وصيدح وفرحات وبدوي الجبل والقروي وغيرهم كل ذلك السيل من الشعر العمودي التافه المرنح بالدموع الذي كان ينشر جنبا الى جنب مع شعرهم ؟؟ غير انه من السهل ان تلحق السمعة السيئة سريعا باي حركة جديدة ناشئة — ولهذا السبب عينه فان اي حركة جديدة ناشئة ،لايمكنها ان تسمح بابتذال اهدافها واساليبها ! ويجب ان يتضافر الشعراء الحديثون ونقادهم على القص من جناح الطفيليين والمتساهلين وتخليص شعرنا منهم ورد اعتباره ومقامه .

هذه قصة الشاعر الحديث — شاعركم (*) ، ابنكم ، الذي ولد فيكم والذي يعيش بينكم ويتحدث عن حياتكم ويغني انتصاراتكم ويحاول ان يكشف لكم عن حياتكم ويغني من معاني الحياة ومن الامها واشواقها . انه غير معني بالكلام المحمس والنغم الرنان والعبارة المهيجة ، وهو غير مغرى بان يلمس العواطف الخارجية ويوقدها ايقادا آنيا — فهو يطمح لان يحقق اليوم او غدا متطلبات الشعر الرفيع في العالم ، وهو ان يستشرف رؤى المستقبل وان يغوص الى اعماق الحاضر فيستخرجه وان يصدر في شعره عن احساس جماعي شامل بامال الامة واشواقها والامها وقلقها وكل مشاعرها المخبوءة في اعماقها .

الانسان في بلادنا ، هذا العربي الذي وهب كثيرا وحزن كثيرا — هو انسان ثائر رافض ، متامل ، متشكك ، يربض في وجدانه امل جديد يعانق الشمس وحزن قديم قدم الدهور ، وبين امله الجديد وحزنه القديم امواج القلق والاشفاق والتعب والتخوف — وان كل مايريده الشعر الحديث من الشاعر هو ان يكشف عن وجه هذا الانسان وعن اعماق وجدانه بصدق الرؤيا التي لا تضحي بالفن — ونحن ان نجحنا في بعض ذلك او كنا على وشك النجاح فسوف نعتبر انفسنا سائرين في الطريق الصحيح نحو فن يرفع الشعر العربي الى مستوى رفيع ، ويدخله شراكة العقل الخلاق المبدع في العالم كله ، ويؤهله للمساهمة في ابداع الجمال وفي انماء التراث العربي والعالمي .

سلمى الخضراء الجيوسي

(*) القيت هذه الكلمة في نادي متخرجي المقاصد ببيروت في الشهر الماضي

غربـــاء

— اغنية حزينة من لاجيء الى فلسطين —

***

في القرية خلفت رجالا غرباء
يفترشون الشوك ليقتات الابناء
ويبيتون على مر الصبر
ينتظرون الفجر ،
ليعودوا للارض السمراء
اعوادا ذبلت في ريعان العمر
ورفاقا يقتتلون على حفنة بر
كانوا غربـاء

*

لم تطلع لي شمس
لم تغمض عين
ومدينتنا تحت النور هباء
مذ ولى الامس
كنت جليس الاصحاب
غاصوا في اغوار الظلمة
ليمدوا حبل ضياء للاحياء
وسراجا للسارين الغرباء
يا ويلي ، نجمي غاب
مصباحي ذابت شمعته
واستخفت اطياف الاحباب
عادوا غرباء

*

يا وطني والعالم يستبق بكل مدار
ويجوب الانسان الاقمار
لم ترعى واديك الظلمات
ويموت الاطفال على عينيك
كم انت حزين
دارك يغشاها الاموات
وتبيت على الغربة ترثى الاحياء
ان تطلع شمس غرباء
ان يهو شعاع غرباء
غرباء من واديهم غرباء

حسن فتح الباب